ابن بطوطة ساردا معاصرا:

أسس لكتابة جديدة في أدب الرحلات في رحلة شاملة هاجسها السفر بمتعة من دون بوصلة

الرحالة الطنجي لم يسرد عن بلاد الإسلام بل سرد بواسطة الإسلام المنفتح على «الآخر» المختلف والغني بثقافته

د. عبد الرحيم مؤدن*

■ لعل أهمية ابن بطوطة ونحن نحتفل بمرور سبعة قرون على ولادته (1304 ـ 1368 أو 1378 م ؟) تكمن في انتسابه إلى زماننا على خلاف العديد من الأسماء التي نستحضرها في وقتنا الحالي، مع وعينا الدائم بانتسابها إلى الماضي. أما بالنسبة الى ابن بطوطة فالزمن الذي ينتسب إليه هو زمن الأسئلة المتجددة، زمن الماضي والحاضر، الهنا والـه هناك.

1ـ من أي موقع يستمد ابن بطوطة هذه المعاصرة، علما بأن المعاصر قد لا يحتاج إلى سنة الميلاد أو الوفاة ما دام السؤال يتناسل باستمرار، في المسار الإنساني، ملتقطا جوهر هذا المسار من خلال الأسئلة التالية :

* هل يستمد ابن بطوطة هذه المعاصرة من زمن رحلته «الواقعي» الذي استمر ثلاثة عقود قطع فيها الرحالة ما يقرب من 120000 كلم، أي ما يعادل ثلاث مرات محيط الأرض، بأساليب السفر السائدة في القرون الوسطى وما أدراك ما أساليب السفر في هذه القرون؟

* هل يعود ذلك إلى ريادته، في هذه الرحلة الطويلة من خلال محطات أساسية ؟ ! على سبيل المثال نذكر نماذج من هذه المحطات :

ـ هو أول رحالة إسلامي «عالمي» ارتحل إلى السودان وإفريقيا.

ـ زار كل الأماكن المقدسة، إسلاميا، وعلى رأسها مكة وبيت المقدس، فضلا عن الأضرحة والمزارات والزوايا...

ـ زار أهم علماء عصره، والتفت إلى أهم الكرامات والمزارات إلى الحد الذي

أصبح فيه عنصرا من عناصر هذه الكرامة أو ذلك المزار.

ـ ما علاقة الرحلة بـ «مركزية الإسلام» في تلك المرحلة ؟ !

ـ ما علاقة الرحلة بالعالم الذي كان معروفا في مرحلة القرون الوسطى، وهو يشمل آنذاك ، المشرق العربي، الهند والصين، بعاصمتها بكين، على الرغم من تشكيك بعض الباحثين الأجانب في ذلك، فضلا عن إفريقيا الشرقية والسودان خاصة !!

ـ زار أوروبا خاصة الجنوب الإسباني أو الأندلس كما كانت تسمى قديما.

ـ هل يتعلق الأمر بكون ابن بطوطة آخر رحالة مسلم وصف بغداد قبل أن ينتشر فيها الخراب، ويعم أرجاءها الدمار ؟ !

2ـ قد يكون الأمر كذلك، دون أن يكون كذلك! فالرحلة غنية بفضاءات مختلفة تسمح بتعدد القراءات بعيدا عن الأفكار المسبقة ما دام ابن بطوطة قد تحول إلى رحالة عالمي منتسب إلى هوية ثقافية إنسانية.

الوجود النصي

إن ما نعنيه بمعاصرة ابن بطوطة يرتبط بوجوده النصي قبل أن يرتبط بوجوده الواقعي (المادي)، ومن ثم، فوجوده النصي، عبر ثلاثة عقود يسمح لنا بإثارة العديد من الأسئلة صبت في الصياغة السردية من خلال المستويين التاليين:

ـ المستوى السردي المتعدد المواقع ـ سرديا ـ والأساليب ـ حكائيا من جهة، والمتعدد في لحظات التلقي من جهة ثانية.

ـ خرق رحلة ابن بطوطة بلغة تودوروف Todorov، لمكونات المتن الرحلي السائد في عصره، ولمكونات، من جهة أخرى، الجنس الأدبي أو جنس الرحلة وبالتالي محكيات السفر بصفة عامة.

السؤال ـ إذن ـ في جوهره سؤال الكتابة بمصطلحاتنا المعاصرة دون إهمال الدلالة القريبة أو البعيدة المرتبطة بزمن ابن بطوطة. ومن بين هذه الدلالات نذكر:

ـ الكتابة مرادفة لتسجيل العادي من حوائج الناس وحسابات وأغراض خاصة. (انظر طلب ركاب إحدى السفن من ابن بطوطة تسجيل وصاياهم الأخيرة بعد أن اصطدموا بطائر الرخ الذي اتخذ شكل جبل غريب لا علاقة له بطبوغرافية المكان أو مرجعه الخرائطي الواقعي) (الرحلة) (2).

ـ التسجيل هو استرجاع للمرئي والمسموع عن طريق الذاكرة، ويتم ذلك من قبل كاتب يستعمل ضمير المتكلم بدلالته على الحضور النصي من جهة، ومسؤوليته من جهة ثانية على القول أي الملكية الرمزية الدالة على انتساب النص إلى صاحبه (... قيدت من ذلك كثيرا، وضاع من جملة ما ضاع لي لما سلبني كفار الهند في البحر) (الرحلة)

ـ دلالة الواقعية الحرفية أو الطابع التسجيلي الغالب على عادة المتن الرحلي. «وأنا أشهد الله وملائكته ورسله، أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفا بالله شهيدا». الرحلة. 453.

3ـ أما مفهوم الكتابة عند كاتب الرحلة، وراويها ابن جزي فهي تعادل الآتي:

التسجيل الأمين

* التسجيل الأمين لما ورد عن صاحب الرحلة دون زيادة أو نقصان، ودون ـ من جهة أخرى ـ نقد أو تمحيص. «أوردت جميع ما أورد من الحكايات والأخبار ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار ». (الرحلة، من مقدمة ابن جزي).

* وقد تكون الكتابة اختصارا لما روي له، أي لـ «ابن جزي». يقول هذا الأخير : « انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد ابن بطوطة » (المقدمة).

* أو قد تكون أداة لإبراز القدرة الأدبية والبلاغية للرحالة : «... ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد، مفصحة للمناحي... وربما وردت لفظة على وضعه فلم أجد عن أصله ولا فرعه ». الرحلة، المقدمة.

4ـ هذه اللحظات من الكتابة تعكس رغبة ـ وهذا مجرد افتراض ـ ابن بطوطة في أن يتحول بعد العودة إلى كاتب محترف. فالكتابة الوظيفية التي مارسها ـ أثناء الرحلة ـ عند تقييده لحوائج الناس، أو وصاياهم، لم تقنعه بسبب خضوعه لتأثير فكرة الكاتب الساحرة، خاصة أنه قضى ما يزيد على ثلاثة عقود من السفر والارتحال. وتلك لعمري مادة غنية للكتاب والكتابة. ومن الثابت أن ابن بطوطة قد تابع ما يحظى به أهل القلم (الكتابة) من تبجيل واحترام، والدليل على ذلك ما أصدره أبو عنان المريني من أوامر لكتابة الرحلة المروية من قبل ابن بطوطة الذي خضع لصياغة معترف بها كما جاءت عند الكاتب والشاعر ابن جزي. غير أن هذا الانتقال من الطابع الشفهي إلى الطابع المكتوب، دفع بابن بطوطة إلى تحصين موقعه السردي الذي أصبح محط تنافس من قبل ابن جزي. إنها لحظة التناوب السردي من خلال تبادل الأدوار بين ابن بطوطة وابن جزي عبر حضور ضمير المتكلم الذي انقسم إلى ضميرين:

* ضمير المتكلم المفرد.
* ضمير المتكلم الجمع.
* ويتوزع هذا الضمير إلى متكلمين:
* المتكلم المفرد المسمى بـ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المعروف بـ ابن بطوطة.
* المتكلم النصي الذي أملى رحلته (Le moi Textuel) على متلق يحمل اسما ذائعا حقيقيا وهو الشاعر الكاتب ابن جزي.
* ويتوزع ضمير المتكلم إلى موقعين:
* موقع الأنا النصي المركزي /ابن بطوطة.
* موقع الأنا النصي الثانوي/ ابن جزي.
* ويتوزع ضمير المتكلم إلى ساردين:
* سارد الداخل/ ابن بطوطة، أي السارد الحدث والسارد القول.
* سارد الخارج /ابن جزي، أي من الخارج حدثا وقولا وسرديا.

5ـ من هنا كان سارد الداخل يحضر في الرحلة من البداية إلى النهاية، قولا وفعلا، في حين يحضر سارد الخارج (ابن جزي) في مقاطع دون أخرى أو قد يكتفي بممارسة من الخارج دائما، الترتيب والعنونة والتذكير والتصحيح، فضلا عن التدبيج والتنميق خاصة أن (ابن جزي) ينتمي إلى سلك الكتبة بالبلاط المريني الزاخر بالشعراء ـ ومنهم ابن جزي ـ والمؤرخين وكتاب الدواوين.

* لا يكتفي سارد الداخل باستعمال ضمير المتكلم المفرد، بل يمارس السرد بضمير المتكلم الجمع وتصبح (نا) الدالة على الجماعة ميثاقا ضمنيا للتطابق بين سرد السارد المفرد وسرد الجماعة المتزامنة معه في لحظة السرد، ما دامت هذه الجماعة مكتفية بالعلامة النحوية (نا) دون أن تعلن عن وجودها السردي ـ ولو من قبل السارد ـ باسم العلم، أو، من جهة أخرى عن طريق الفعل السردي المعارض لسرد المتكلم المفرد.

6ـ وفي حالة التنصيص على أسماء السرُّاد، فإن ذلك ينتج لحظتين :

ـ لحظة التطابق من جديد بين سرد المفرد وسرد الجماعة (رحلة ابن بطوطة. ص / 32/ 264/ 265... إلخ)

ـ أو قد تنتج لحظة التعارض بين السارد المفرد والآخر المنتمي إلى الجماعة. (مرويات أو حكايات قد لا تقبل التصديق).

ويظل هذا التوزع بين السارد المركزي (ابن بطوطة) وباقي السرُّاد الآخرين، خاضعا لملكية النص المادية والرمزية، أيضا، لصاحبه ابن بطوطة، ومن ثم كانت الرحلة سيرة ذاتية لـ ابن بطوطة، وإننا لا نعرف القليل أو الكثير عن ابن بطوطة إلا عن طريق هذه الرحلة التي تكاملت فيها وضعية السارد (وهو من ورق) بوضعية المؤلف أو الكاتب (وهو من لحم ودم)، وهاتان الوضعيتان ارتبطتا بـ «الشخصية المركزية المشكلة من أفعال وتفاعلات».

تبادل المواقع

امتد تبادل المواقع بين هذه الأطراف إلى النص، دون الاقتصار على المنتجين أو الساردين لمراحله وصيغه، هكذا توزع النص بين الطرفين مما أنتج مواقع متباينة تجسدت كالآتي:

* يشغل ابن بطوطة دور المرسل أو السارد أثناء الرحلة خاصة بعد اعترافه بضياع بعض مذكراته لأسباب عديدة. إنه سارد أثناء الارتحال.

* وهو مسرود له أثناء إملاء رحلته على ابن جزي الذي يتحول بدوره إلى سارد أثناء الكتابة.

* سرد ابن بطوطة يحمل ملامح مميزة منها:

ـ ملامح السرد الشفهي على الرغم من وجود بعض التقييدات التي يشير إليها ابن جزي بقوله: «انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة أكرمه الله ». (الرحلة، ص: 827).

ـ ملامح الرحالين السُرَّاد السابقين على ابن بطوطة، وهو بذلك ينطلق من سنة السند الذي جسد عماد السرد، أو الرواية في الثقافة العربية الإسلامية.

إن الطابع الشفهي ما زال مخلصا للحديث أكثر من إخلاصه للكتابة. وإذا كان «بديع الزمان الهمداني» قد استطاع نقل فعل الحديث (حدثنا) من سنده الديني أولا (الحديث النبوي) وسنده اللغوي ثانيا (علماء اللغة ورواة الشعر) فإن الرحلة ـ خاصة رحلة ابن بطوطة ـ قد أعادت وصل ما انقطع بربط السرد الرحلي بجذوره الشفهية من خلال الآتي :

* الإكثار من فعل (حدث) الدال على الكلام قبل الكتابة (الرحلة، ص : 746/112/40).

* الإكثار من الخبر والإخبار، وتقديم الحكائين باسم أو من دون اسم.

* الإكثار من حروف العطف وأدواته مساوقة للحركة والانتقال.

* صيغ التعليم والتوجيه الدالة على استحضار مستمع أو متلق مباشر مفترض. « وسيأتي ذكره »،الرحلة، ص: 692/56 .

* توظيف عنصر الاستظهار، شعرا ونثرا، المنتشر في الرحلة، ص : 412/56

* إيراد العديد من المرويات الأحدوثات والأخبار المتوزعة بين العجيب والغريب، الطريف والمتداول... الرحلة، ص : 280.

أما على مستوى المكتوب، فالإشارة إلى تقييدات الشيخ ـ كما أشار إلى ذلك ابن جزي ـ واردة في الرحلة مما يؤكد على طابع المذكرات البارز في التقسيم والتبويب ، كما أن خصائص المكتوب تبرز أيضا في قدرة الرحالة ابن بطوطة على التوليف بين :

* السرد المباشر والكتابة التاريخية، أو بين اليومي Le quotidien والحقب الزمنية المختلفة المرتبطة بالماضي.

* بين كتابة أوتوبيوغرافية وكتابة بيوغرافية أو تسجيل سير الأولياء ومراتب الصوفية، ودرجات الشيوخ وطبقات العلماء، وأنواع الكرامات، وأنواع الزوايا أو «الحوالق» كما يسميها أهل القاهرة «الرحلة. ص : 54 »، وللتذكير فإن حديث ابن بطوطة عن الكرامات يمتزج فيه أسلوب الرحالة بأسلوب الكرامة التي تصبح ملكا للسارد إلى الحد الذي يتعذر فيه التمييز بين سرد الرحالة وسرد الكرامة المنقولة عن الآخر، صاحب الكرامة أو الراوي لبعض لحظاتها. ويرجع ذلك إلى تكامل سرد السارد المركزي بسرد السارد الثانوي ابن جزي من خلال عملية التوليف (المونتاج) بين محكي السماع ومحكي الرؤية البصرية، بين المحكي العجائبي والمحكي الواقعي، بين محكي السارد ومحكي الشخصيات، بين المحكيات الكبرى للرحلات الثلاث والمحكيات الصغرى المتوزعة عبر هذه المحكيات الرئيسية، بين المحكي المسهب أو المفصل أو الحواشي المكتفة لهذا الحكي، أو المفصلة لبعض مغاليقه.

كان «ابن بطوطة ساردا قبل أن يكون كاتبا، وكان ابن جزي كاتبا قبل أن يكون ساردا، ومتعة الحكي «السرد» في الرحلة، تعود إلى كون ابن بطوطة كان سليل سرُّاد قبل أن يكون سليل كتاب بالمعنى الحرفي، ومن ثم كان إحساسه بانتمائه إلى مركزية الإسلام، أثناء القرون الوسطى، التي لعبت فيها مركزية الحكي ـ المخيال الإسلامي ـ دورا كبيرا. فابن بطوطة لم يسرد عن بلاد الإسلام، بل سرد بواسطة الإسلام المنفتح على الآخر ـ سواء شاركه المعتقد أم لم يشاركه في ذلك ـ الغني بحكاياته وثقافته وتجربته في التعامل مع التنوع في المكان والزمان.

من هنا كان ابن بطوطة يتحدث بصيغة المفرد من خلال عين الآخر الذي ظل بالنسبة لابن بطوطة:

* صنيعة إلهية كشف السفر عن خبرتها وعطائها وحضارتها المميزة.

* الاحتكام إلى ما ينفع الناس عن طريق الكشف والاكتشاف.

* الانفتاح على الآخر في التسيير والتدبير مما دفع به إلى أن يشغل مناصب عديدة لتسهيل التعامل بين الناس، مثل شغله للقضاء بـ «دهلي» أي «دلهي» والسفارة بالقسطنطينية والصين ومهام سياسية أخرى بجانب سلطان « مالي ».

* يقدم العجيب والغريب، والمدهش أو الاستثنائي من موقع القناعة أو الاقتناع بالاختلاف والتنوع بين البشر من جهة، ومن موقع شساعة المعرفة التي لا وطن لها ولا حدود لها دون احتكار من جهة، أو منظور متعال من جهة ثانية.

* واستغراق سفره لثلاثة عقود يدل على رغبته الدائمة في التعلم والتعرف على هذا التنوع، فـ «الحكمة ضالة المؤمن» و«لا تبحث عن القائل، بل ابحث عن المقول».

* قد يعزف مرات متعددة على مقولة الإسلام والكفر، غير أن ذلك لا يدفع به إلى القذف والقدح، بل كان يلتزم الحياد مسجلا جوانب معينة من ممارسة هذه الشعوب. وتجدر الإشارة إلى أن «الكفر» قد لا يبقى حبيس المرجعية الدينية، بل قد يعني السلوك غير الأخلاقي عامة. ولعل هذا ما يفسر وقوع ابن بطوطة في مأزق السرقة أو فقدان المتاع من طرف هؤلاء الكفرة.

كتابة جديدة

ثانيا ـ (التحفة) والنوع الرحلي:

استطاعت رحلة ابن بطوطة أن تؤسس لكتابة رحلية ابتعدت ـ في بعض عناصرها ـ عن تقاليد الكتابة السائدة في هذا المجال من خلال الآتي:

ـ لم تلتزم باحترام خط الذهاب والإياب، بل أنتجت الرحلة خطوطا عديدة من الذهاب والإياب. فإذا كان «الحج» في البداية، هو المقصد العلني لابن بطوطة فإن الحج تحول إلى ست (6) حجات من مواقع متباينة عبر العالم آنذاك. هكذا تقاطع خط الحج مع خطوط أخرى، ذهابا وإيابا، أنتجت مقصديات متعددة.

ـ وأصبح الحج نمطا من أنماط الارتحال داخل الرحلة بجانب النمط الزياري والنمط السفاري

صورة تقريبية للرحالة ابن بطوطة

(الهند / القسطنطينية / مالي) والنمط العجائبي (الهند / الصين / السودان) والنمط الكراماتي، فضلا عن الرحلة العلمية والفهرسية والسياحية... إلخ. قد يقول قائل، إن مرجع ذلك يعود إلى قيام ابن بطوطة برحلات ثلاث شهيرة، وسبعة أسفار أو أكثر. غير أن ذلك لا يمنع من التأكيد على أن تعاملنا، في هذا السياق، يتم من خلال (التحفة) التي أصبحت لدى المتلقي (القارئ) نصا واحدا خضع للتوافق التام بين ساردِه «الراوي» المركزي ابن بطوطة وساردِه الثاني/ ابن جزي.

ـ هكذا يمكن نعت الرحلة بأنها رحلة شاملة هاجسها الأساسي هو السفر، بعد أداء الفريضة الخامسة، بغض النظر عن وجهة الرحالة. متعة السفر هي التي قادت عملية الارتحال، أولا، وعملية الرواية ثانيا.

د ـ ومن ثم تنوعت في الرحلة أساليب الدهشة والإدهاش (العجائبي) ولم يتردد الرحالة في الكشف عن جوانبه الحميمية الأوتوبيوغرافية، أو في ترويض التراث الرحلي السابق عن كبار رحالات العصر (ابن رشد / التجيبي / العبدري / ابن جبير...) أو في كتب المسالك والممالك لينسج محكيا من محكيات السفر التي ألح فيها الرحالة على إمتاع ذاته، وإمتاع الآخر، فهو لم يخلق القطيعة المطلقة مع الرحالين السابقين، لكنه، في الوقت ذاته، أسس لسرده المميز القائم على تجربة ذاتية مميزة.

ه ـ هكذا تخففت رحلة ابن بطوطة من الصور البلاغية، ومن المبالغة في التأدب إلى الحد الذي استعمل فيه الكثير من مفردات العامية وصيغها، فضلا عن إلحاحه على المتابعة لليومي، واستقصاء مظاهر الواقعي، مما قرب النص من المتلقي، أو المستمع، الذي لم يبق حبيس التقاليد القروسطية، بل انفتح هذا المتلقي، وهو الذي كان ينتظر رحلة حجية، على رحلات متعددة الأنظمة والمعارف والصيغ السردية والمحكيات العجيبة والغريبة، وتحولات الواقع والخيال. إنه خرق، متجدد، لميثاق القراءة بين قارئ نمطي ـ قارئ الرحلة الحجية ـ ورحلة متمردة على النمطية.

* كاتب مغربي يعمل في كلية الآداب / القنيطرة

** اعتمدنا، في هذه المداخلة، على رحلة ابن بطوطة المعنونة بـ « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، تقديم وتحقيق : الشيخ محمد عبد المنعم العريان، دار صادر 1996

ابن بطوطة يملي رحلته

كتاب عن السياسي العراقي عبدالرحمن البزاز:

كان يحمل مشروعا نهضويا حضاريا للعراق يحتكم للعقل لا العاطفة والحقيقة لا الخيال

عارض تدخل العسكر في السياسة فالجيش كالقطار حينما يخرج عن الخط تكون الكارثة

سيف الدين الدوري *

عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر صدر كتاب «عبد الرحمن البزاز اول رئيس وزراء مدني في العراق الجمهوري» اعده سيف الدين الدوري، ويتضمن الكتاب الذي يحتوي على ستة فصول حياة البزاز ومسيرته السياسية قبل ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 وبعدها، اذ يتضمن الفصل الاول حياة البزاز ونشأته ودراسته ونضاله في العهدين الملكي والجمهوري. كما يتضمن الفصل الثاني سياسة البزاز الداخلية حينما تسنم رئاسة الحكومة العراقية خلال سنتي 1965 و1966 فيما يتضمن الفصل الثالث سياسة البزاز الخارجية. اما الفصل الرابع فيتضمن نظرة البزاز للقضية الكردية في العراق وبيانه الشهير الذي اعلنه يوم 29 حزيران (يونيو) 1966 لحل القضية الكردية والذي يحتوي على اثنتي عشرة مادة. ويتضمن الفصل الخامس نظرة البزاز للعلاقة مع الجارة ايران وسبل حل المشكلات المزمنة معها ويتضمن الفصل السادس والاخير آراء البزاز ومفاهيمه ومواقفه حيال العديد من القضايا وخاصة مفهوم القومية والاشتراكية ومواقفه من القضية الفلسطينية ومصطلح الشرق الاوسط والحلف الاسلامي وعدم الانحياز.

حياته:

ولد عبد الرحمن البزاز عام 1914 في بغداد ودرس فيها ثم التحق بكلية الحقوق وتخرج فيها عام 1934 وكان يحمل افكارا وطنية عربية ثم سافر الى بريطانيا تلقى هناك تعليما في القانون في كلية الملك بجامعة لندن حصل خلالها على درجة عليا.

وحينما قامت حركة 8 شباط (فبراير) 1963 واطاحت بحكم قاسم تم تعيين البزاز سفيرا للعراق لدى الجمهورية العربية المتحدة ثم نقل سفيراً الى لندن وهناك انتخب امينا عاما لمنظمة الدول المصدرة للنفط «اوبك» اضافة الى عمله كسفير للعراق في لندن.

وحينما اطاح الرئيس عبد السلام محمد عارف بسلطة البعث في العراق في 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1963 وكلف العميد الطيار الركن عارف عبد الرزاق بتشكيل حكومة جديدة بدلا من حكومة الفريق طاهر يحيى في 1965/9/6 شغل البزاز فيها منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية وحينما قام عارف عبد الرزاق بمحاولته الانقلابية الاولى الفاشلة بعد عشرة ايام من تشكيله الحكومة اي منتصف ايلول (سبتمبر) كلف الرئيس عارف البزاز بتشكيل الوزارة واستمر فيها حتى مصرع الرئيس عارف بسقوط طائرة الهلكوبتر التي كان يستقلها ليلة 13 نيسان (ابريل) 1966 وانتخاب شقيقه عبد الرحمن عارف رئيسا للجمهورية كلف البزاز مرة اخرى بتشكيل الوزارة واستمر فيها على الرغم من محاولة الانقلاب الفاشلة الثانية التي قادها عارف عبد الرزاق في 30 حزيران (يونيو) 1966 الا ان التكتلات العسكرية داخل القوات المسلحة العراقية اجبرت البزاز على الاستقالة يوم 6آب(اغسطس) 1966.

وحينما وقع انقلاب 17 تموز (يوليو) 1968 بقيادة حزب البعث وعاد البزاز من لندن القي القبض عليه وقدم الى المحكمة التي حكمت علية بـ 15 عاما بتهمة التجسس لصالح دولة اجنبية وتعرض خلال اعتقاله الى انواع شتى من التعذيب خرج بعد ثلاث سنوات مشلولا بعد تدخل ووساطات عربية واجنبية منها العقيد القذافي والرئيس الفلسطيني ياسر عرفات والامير سلطان بن عبد العزيز والقادة السوفييت كما توسط لدى الرئيس احمد حسن البكر كل من الدكتور عبد الستار الجواري وزير التربية العراقي آنذاك وكذلك الدكتور عزة مصطفى وزير الصحة. كما تطوع للدفاع عنه في المحكمة المحامون العراقيون حسين جميل وفائق السامرائي وشوكت حبيب الشبيب نقل فورخروجه من السجن الى لندن للعلاج الا انه توفي في منتصف عام 1973.

قانوني ورجل قومي

وعبد الرحمن البزاز هو السياسي والقانوني وشخصية عراقية قومية ودولية ورجل فذ ومفكر ومفاوض ممتاز ومحدث ساحر ذكي لبق ظريف يجمع بين المرونة والبساطة والتواضع والوداعة وبين الصلابة والاعتداد بالنفس وبالاصالة والعلم والثقافة والمركز المرموق. ويعرف قدر نفسه ولا يتدخل في امور ليست من اختصاصه. وكان في طليعة السياسيين العراقيين الذين يدعون الى الديمقراطية والحرية قولا وفعلا لانه من المؤمنين بهما. فقد عاش حياته في سبيل تحقيق احلام وطنه في عراق ديمقراطي حر موحد وبلد للعرب والاكراد وبقية الاقليات جميعا، بلد المروءة والوفاء والانفة والإباء والسمو والكبرياء، عراق صلب دون ان يكسر ولين دون ان يعصر لا يتكبر، كريم مضياف لكنه لا يدع احدا ان يستغله، عراق دمث صبور ودود ولطيف.

كان البزاز يرى في اختلاف الرأي نوعاً من التفكير ومصادرة الرأي نوعاً من التكفير. وكان يؤكد دائما انه من انصار الاختلاف الحر بين الآراء وضد التكفير، ويقول: يجب ان نتعامل مع التفكير على اساس ان افتراضات قابلة للتصحيح بتفكير اخر وجهد عقلي ولا خطر من اي تفكير حتى لو كان مليئا بالاخطاء فمواجهة الفكرة بالفكرة الاخرى، اما اتهام المفكرين ومصادرة آرائهم فتلك كلها اخطاء اكبر فهي عدوان على كرامة البشر وانسانية الانسان المتمثلة في حرية العقل.

ويؤكد البزاز ان التفكير ليس خطرا ولكن رفض الحوار هو الخطر ولان البزاز غير صدامي فهو يؤمن بالحوار طريقا الى الفهم الصحيح.

ان صفاء سريرة البزاز وطبعه الذي تغلب على المجاملة ورقة اخلاقه واستقامته المطلقة ونزاهته في العمل قد اوجد قناعة مطلقة لدى العراقيين بانه الشخصية المؤهلة لتحديث العراق. اذ انه كان يحمل مشروعا نهضويا حضاريا للعراق لانه كان يحتكم للعقل لا العاطفة والحقيقة لا الخيال ويضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة. لكنه لم يستطع فجرفته موجة الجهل والعقوق والجحود والنكران، موجة التخريب والاحقاد والفساد والالحاد، موجة الشعارات، موجة البيع والشراء للحناجر وللاقلام والضمائر الفاسدة العفنة في زمن الخطب الطنانة التي تعمل في الشعب تفريقا وتمزيقا وتنكيلا وتضليلا.

سياسة البزاز الداخلية

ألزم البزاز نفسه حينما شغل منصب رئيس الوزراء في عهد الرئيسين الاخوين عبد السلام وعبد الرحمن عارف بتحقيق وحدة العراق والحفاظ على سيادة القانون واراد ان يكون العراق عراق الجميع عربا واكرادا واقليات.. وكان البزاز عاقدا العزم على انهاء الحكم العسكري الذي استمر ثماني سنوات، اذ انه كان يكره اقحام الجيش في الحكم والسياسة، فمجال الجيش كما يرى البزاز هو بين الثكنة والجبهة، فهو كالقطار حينما يخرج عن الخط تكون الكارثة. لذلك لم يرق لعدد من العسكريين فعملوا على اقصائه واقالته عن السلطة لينفردوا بالحكم.

كان البزاز يؤمن بحرية الصحافة ويقدر رسالتها ويقول ان من الواجب ان توضع القوانين لحمايتها. وكان يؤكد ان الذي يحمي الصحافة ليس القانون فقط بل شعور المسؤولين بأهمية الصحافة.

القضية الكردية

كان البزاز يرى في القضية الكردية مشكلة العراق الاساسية ويقول انها مشكلة العراق الاساسية المرتبطة بوجوده، لذلك عمل ما في وسعه من اجل اعادة الامن التام الى ربوع العراق كافة والحفاظ على وحدة تربته ووضع حد للمآسي التي قاسى منها العراق.

وفي التاسع والعشرين من حزيران (يونيو) 1966 اعلن رئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز بيانا لحل القضية الكردية يتضمن اثنتي عشرة مادة. واكد البزاز في بيانه هذا ان الحكومة وحدها هي المسؤولة عن أمن المواطنين من اقصى شمال العراق الى جنوبه كما انها مسؤولة عن أمن البلاد الداخلي والخارجي وقال ان لها جيشها الشجاع وقواتها المسلحة النظامية المخلصة ما يمكنها من اداء واجبها المقدس.

سياسة البزاز الخارجية

اما سياسة عبد الرحمن البزاز الخارجية فقد بذل جهودا من اجل اقامة علاقات عربية واسلامية ودولية سليمة مع جميع الدول. وكان يرى ان العراق بوضعه الراهن تحده دول اسلامية غير عربية وتحده من جهة اخرى اقطار عربية شقيقة وان سياسة العراق تجاه الدول المجاورة غير العربية هي الرغبة الاكيدة في التعايش السلمي والتعاون المخلص في المجالات الثقافية والاقتصادية وتحقيق معاني حسن الجوار. اما سياسته تجاه الدول العربية فيقول انها واضحة المعالم فنحن جزء من الامة العربية ومصيرنا مرتبط بها.

كما بذل مساعي كبيرة من اجل تحسين وتطوير علاقات العراق مع جارته تركيا وكان اكثر ما يهتم به البزاز مسألة مياه نهري دجلة والفرات اللذين ينبعان من الاراضي التركية وكان حريصا على حصة العراق من المياه كاملة دون المساس بها من قبل السلطات التركية.

العلاقة مع إيران

منذ البداية والبزاز كان وظل حريصا على الحفاظ على الروابط المتينة التي تربط العراق بايران ويرى ان تلك الروابط ليست الجوار وليست الجغرافيا وليست التاريخ فقط وانما المعتقد وربما المصير في المنطقة ذاتها ولذلك اتبع البزاز سياسة لن تقطع خيطا من خيوط الود.

وكان البزاز يرى ان حل المشكلة مع ايران يجب ان يتم بالطرق السلمية لذلك حرص على ان تحل المشكلات مع ايران بالطرق الدبلوماسية ويرفض منطق القوة في حل المشاكل.

واضاف البزاز في مؤتمره الصحافي «انا اعلم ان فريقا من المواطنين يسمون هذه السياسة بالضعف وربما بالخوف وقد استلمت بعض البرقيات بل مئات البرقيات لكن بعضها اقول تبدأ بهكذا (مزيداً من القوة) و(مزيداًمن الشجاعة) و(مزيداًمن الحزم) وانا اود ان اقول لهؤلاء المواطنين بان الشجاعة لا تنقصنا وان الحزم قائم ولكننا نعتقد ان هناك اعظم من الحرب واجل من الشجاعة وهو الحكمة وهو الرحمة ونحن بهذا نتأثر بقول المتنبي الذي يقول:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

* كاتب عراقي مقيم في بريطانيا